IUGJIS
Vol 27, No 2, 2019, pp 97 - 115
ISSN 2410-5201
مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2018-03-08)، تاريخ قبول النشر (2018-04-02)

سنة التغيير في القرآن الكريم

د. أحمد داود محمد شحروري [1]،*

[1] كلية الحقوق – جامعة الزيتونة الأردنية الخاصة

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: ahmadshahrori@hotmail.com

الملخص:

السنن الإلهية المبثوثة في الكون كثيرة، وهذا البحث دراسة لواحدة منها، سنة التغيير كما يعرضها القرآن إرادة تتحقق بعزيمة المكلف، ولها عناصر أرشد اليها القرآن جلاها البحث ، كما بين أسلوب القرآن في التغيير، وذكر أهم صفات مدير التغيير ومريده، وأركان التغيير.

وبين البحث أن اسلوب التغيير في القرآن الكريم يتلخص في التدرج والتشخيص والحزم والصبر والإقناع والعلم، وتنويع الخطاب، ونبل الوسيلة تبعاً لنبل الهدف. وختم البحث بالنتائج والتوصيات.

كلمات مفتاحية: التغيير - سنة

The Variable Sunan

Abstract

The divine Sunan that is emitted in the universe is many, and this research is a study of one variable Sunna as presented by Qur'an will be realized in the determination of the Assigned, and have elements guided by the Qur'an, the research also presented the method of the Qur'an in variable, and mentioned the most important characteristics of the director of variable and his wish, and elements of variable.

The research shows that the method of change in the Qur'an is eliminated in the gradation, diagnosis, firmness, patience, persuasion, science, diversification of speech, and nobility of means according to the noblest objective. Then concluded with conclusions and recommendations.

Keywords: Variable - Sunan

مقدمة

الحمدلله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على النبي المصطفى والرحمة المهداة، ورضي الله تعالى عن صحابته والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فإنّ أهمية البحث في موضوع (التغيير في القرآن الكريم) تأتي لكونه سنة إلهية كونية ، فهو من تصرف الله تعالى في كونه ، يحدثنا عنه القرآن الكريم في آيات عقدية ت شكل بمحتواها فهما دقيقا لاسم "المهيمن" سبحانه ، وهو الذي تؤكد عليه آيات يعز حصرها في هذا المقام، مثل قوله سبحانه : { **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِم** } [الرعد:11] وقوله: {**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيم** } [الأنفال:53] ، وقوله جل في علاه: {**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** } [الإسراء:16].

ومن التغيير ما هو جهد البشر وهو التحول من حال إلى آخر بفعل الاستجابة لحركة الإصلاح العقدي والاجتماعي التي يقودها الوحي بشقيه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومعرفة الفرق بين هذين النوعين على درجة من الأهمية، ويركز هذا البحث على التغيير البشري، بمعنى إصلاح الفاسد من العقائد والسلوك، وتقويم المعوج منها، وهي مهمة الرسل عليهم السلام وأتباعهم من بعد إلى يوم القيامة .

إن الحديث عن سنة التغيير في القرآن الكريم هو حديث عن منهج القرآن كله، لأن القرآن العظيم نزل على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ليغير حياة الناس الذين طالما تعطشوا للإصلاح وقد عشعش في حياتهم الفساد، وطالما تطلعوا إلى الشمس وقد سادت في حياتهم ظلمة الجاهلية، فالقرآن الكريم هو كتاب التغيير بحق، لكن التغيير في القرآن الكريم ليس منشودا لذاته ولا مبتغى لضيق بقديم يراد له أن يلحق بالحداثة، القرآن كتاب الهداية وهو كتاب تحقيق المصلحة ودرء المفسدة، وهذا المقصد لا يتوقف عند الشكل بل يتعداه إلى المضمون، ولا يضيق بزمان بل تتسع له الأزمان، لأن الحق أزلي كان قبل أن يكون شيء، ولئن بهر الناس ببريق الحداثة فإن نور الحق أسطع من بهارجها إذا انسلخت عنه، والحداثة مولود إذا تسربل بالحق عاش وتعافى، وإذا زايله كانت بذور فنائه في لفائف مهده، فإذا سلمنا بهذا علمنا أن القرآن لا يغير القديم لقدمه ولكن لاعوجاجه، فإذا كان القديم صالحا كان جزء من هدي القرآن ورسالته وقوي مع جملة حقائق القرآن العظيم في الصمود أمام أهل الزمان والمكان، وكان جزء من كلية القرآن في منظومة التغيير المنشود لكل ما يتنافى مع روح القرآن ورسالته.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى تجلية منهج القرآن في الدعوة إلى التغيير في عقيدة المكلفين وسلوكهم على حدٍ سواء، وبيان صفات القائمين على التغيير، ومعرفة أصول التغيير والحاجة إليه بعد تشخيص الواقع، والوصول إلى أن التغيير سنة إلهية تطال الحياة والأحياء.

مشكلة البحث:

لعل المشكلة الوحيدة التي واجهتني في هذا البحث هي أن من كتبوا في سنن الله تعالى في كتابه الكريم كثر، ومجالات كتاباتهم متعددة متباينة ، وأني حريص على أن لا أكون في ما أكتب نسخة جديدة من كتبهم ومقالاتهم، وما دعاني إلى الكتابة في سنة التغيير في القرآن الكريم ما أراه من رتابة حال المسلمين اليوم وعدم فهم كثيرين لسنة الله في التغيير، لم أشأ أن أكرر دراسات سابقة، فكانت قراءتي مستقلة،غير أني لا أنسج على منوال هوى بحول الله وأعتمد على فهمي للسيرة وهي أجود مفسر للقرآن بعد نصوصه المباركة، وعلى كليات وردت في كتب علوم القرآن وكتب أصول الفقه الإسلامي دون نقل عن أفهام المعاصرين أو كتاباتهم .

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من:

– مقدمةٍ: تبين أهمية البحث وهدفه ومشكلته وخطته.

– تمهيد بعنوان: التغيير القرآني إرادة قبل الإدارة

– وثلاثة مباحث تبين عناصر التغيير القرآني كما يأتي:

المبحث الأول: واقع يقتضي التغيير.

المبحث الثاني: منهج يغير الواقع.

المبحث الثالث: مدير التغيير.

– **خاتمة:** تبين أهم نتائج البحث، وتوصيات الباحث.

تمهيد: التغيير القرآني إرادة قبل الإدارة

اتبع القرآن سنة فريدة في التغيير ابتدأ ترتيب المصحف بتعليمها للمكلفين دعاءً يخرج من أعماق قلوبهم جعله متكررا في يومهم وليلتهم تكرار عبادة وتبتل، يقاس خشوع المؤمن بمدى انسجامه معه، اقرأ سورة الفاتحة التي هي فاتحة القرآن وفاتحة الصلاة وفاتحة الطريق في منهج الله كله، وفيها دعاء يحكيه القرآن على لسان المؤمنين **{اهدِنَـــــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيم (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّين (7)} [الفاتحة:6-7]** والسر العجيب في هذا السياق القرآني أنه ذكر التغيير لا على سبيل الأمر والطلب من المشرع للمكلف، ولكن على سبيل رغبة المكّلف وشوقه ورجائه بدعائه – اهدنا – الذي يدلّ على الرغبة المضافة إلى التذلل والأمل والرجاء، وهذا هو التنزيل المعجز من إله خالق يعلم أن الحمل على الشيء بالإكراه لا يولد الاستقامة، فعلمتنا سورة الفاتحة أن التغيير الإيجابي أمر تطمح إليه النفس المستقيمة وترجوه وتتوق إلى تحقيقه لا تحمل عليه حملا ولا تؤطر عليه أطرا إلا بقدر ما تذكَر بضرورة العودة إلى فطرتها على طريق هذا التغيير المنشود.

إن أهم من التغيير ذاته توافر الإرادة التي تتطلع إلى التغيير، وفي هذا يسلم أصحاب العقول الراجحة أن المريض لا يمكن أن يهتدي إلى ضرورة علاج نفسه حتى يقتنع بأنه مريض، عندئذ يحس بأنه يتوق إلى العلاج الذي يعيد حياته إلى طبيعتها.

لقد شعر أهل مكة قبيل البعثة بحاجتهم إلى التغيير بعد أن بلغ الظلم أوجه وعدا الأقوياء على الضعفاء، إلى حد ضجت معه رمال مكة، فدعا وجيه من وجهائها يدعى عبدالله بن جدعان إلى حلف لنصرة المظلومين عرف في تاريخ مكة المكرمة بحلف الفضول، وكان النبي محمد صلى الله عليه وسلم ممن حضر هذا الحلف وبارك بنوده التي خطت خطوة في طريق التغيير، منسجمة مع غايات النبوة الوشيكة، حتى قال عنها نبينا صلى الله عليه وسلم بعد ذلك:" لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلاَمِ لأَجَبْتُ" [1] وفي هذا الحديث الشريف إقرار من النبي صلى الله عليه وسلم ببذرة الخير التي كانت أرض مكة أهلا لها لترشحها لاستقبال وحي السماء، في جملة من مكارم الأخلاق وحميد الخصال التي كان العربي يتحلى بها ويشير إليها نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله: " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ "[2]، فأصول الأخلاق موجودة ودور النبوة إتمامها وتوجيهها.

لقد كان التناقض الذي يعيشه العرب في الجاهلية بين جملة أخلاق كريمة ومجموعة سلوكيات منحرفة، أمرا جعل النبي صلى الله عليه وسلم ينشد الخلاص ويتطلع إلى التغيير. وقد كان توجه النبي صلى الله عليه وسلم للتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد يقلب وجهه في السماء طالبا البعد عن دنيا عبدة الأوثان مدمني الخمر، فاستجاب له ربنا جل في علاه بإرسال وحيه وكانت خطوة التغيير المباركة { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**" [العلق:1] لتشكل تغيير الأمية العربية تمهيدا لاستقبال العلم الذي يغير الجهل، ويحل النور محل الظلام، ومن إعجاز سورة العلق التي كانت أول التنزيل أنها تناولت سبب طغيان المكلفين وضياعهم عن درب الهدى: { **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (7)**} [العلق:6-7]، وإن كان سبب نزولها أبا جهل[3] فرعون هذه الأمة فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولكن سبب النزول ساعدنا في تفسير الآية التي تتوعد الرافضين للتغيير ولا يملكون الإدارة التي تحملهم عليه استكبارا من باطلهم على الحق: {**أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**} فأبوجهل يتفاخر على النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة ماله واتباعه الذين يحسب أنهم رصيد له في مواجهة نور الحق ، فيأتيه الجواب عاجلًا: { **إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى** " [العلق:8]، وحقيقة البعث بعد الموت هي الباعث على التغيير، فالدنيا مزرعة الآخرة، وما تزرعه فيها تحصده إذا انقلبت إلى مصيرك المحتوم، وبقدر التسليم بهذه الحقيقة تكون قوة الإرادة للتغيير المنشود، فإذا توافرت الإرادة صار لابد من إدارة هذا التغيير، ولأن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، فإن إدارة التغيير بعد توافر الإرادة في سبيله هي التي توجه هذا التغيير إلى منفعة المكلفين، وتتلخص إدارة التغيير باستقبال الرسل للوحي الذي كلفهم بذلك بأنفسهم وبمن يرث رسالاتهم من أتباعهم : {**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ**

(1) ابن هشام: السيرة النبوية (149/1).

(2) من حديث أبي هريرة أخرجه مالك في الموطأ – كتاب حسن الخلق، قال ابن عبد البر: هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره . مالك، الموطأ (ص904).

(3) النسفي: تفسير القرآن الجليل (382/5)، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (528/4 – 529).

فِيهِ...} [البقرة: 213]، **{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)}** [النساء:163-165] والنبي صلى الله عليه وسلم يقرر أن علماء الأمة هم ورثة الأنبياء في وظيفتهم بالدعوة والتغيير فقد روى أبو الدرداء في حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده قال: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ "[1]. فأعظم به من إرث.

عناصر التغيير القرآني

القرآن الكريم الذي نزل لتغيير حياة الناس بعد جاهلية هوجاء، ضمت آياته الكريمة حديثا عن ثلاثة عناصر لابد من التطرق إليها في حركة التغيير :

العنصر الأول: واقع يقتضي التغيير.

العنصر الثاني: هدي يغير الواقع.

العنصر الثالث: مدير التغيير.(النبي وورثة النبوة بعده)

ويتناول البحث هذه العناصر في مباحث ثلاثة كما يأتي :

المبحث الأول:

العنصر الأول: واقع يقتضي التغيير

تناول القرآن واقع البشرية قبل نزوله، ويجمل البحث زوايا نظر القرآن إلى واقع الناس الذين تنزل فيهم بما يأتي:

1- سبب نزول القرآن:

اعتنى القرآن الكريم بالحديث عن حال الناس قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وقبل تنزل القرآن الكريم عليه، وذكرت آيات كثيرة سبب نزول القرآن وأثره في المجتمع الذي تنزل فيه، من مثل قوله تعالى: **{ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (16)}** [المائدة: 15 -16]، فهذا التنزيل الكريم يشير إلى واقع الناس قبل تنزل القرآن ويصفه بأنه " **الظُّلُمَاتِ** " جمع ظلمة، وعموم المفسرين على أن المراد بالظلمات والنور: الإيمان والكفر[2]، والقرآن وهو يصف واقع الناس قبل القرآن بالظلمات ويستخدم كلمة **{ يُخْرِجُهُم}** يفتح العيون على حقيقة سوء هذا الواقع وضرورة الخروج منه، وهذا ما يلخص وظيفة الوحي ، الذي يدقق في استخدام المفردات لتكون بليغة في وصف

(1) ابن حنبل: المسند (196/5)، وذكره الألباني : صحيح الجامع الصغير وزيادته ، وصححه عن أبي الدرداء ح: (6297).

(2) الفخر الرازي : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (195/11)، وابن كثير: مرجع سابق (34/2)، والنسفي: مرجع سابق (399/1).

الحال: { **الظُّلُمَاتِ** " مفردة و {**النُّور**" يقابلها والأولى تدل على جمع والنور مفرد، ذلك لأن الباطل مذاهب لا مذهب واحد، جربته البشرية على مدى الزمان، ولا يقابل هذه المذاهب التي نأت بالبشرية عن السعادة إلا ذات النور منذ الأزل: نور الوحي والتوحيد والإصلاح[1].

وإذا كان القرآن يعلل نزوله بإرادة إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فإن آياته ارتبطت بسبب نزول عام هو الهداية، وبعضها ارتبط بسبب نزول خاص إضافي، فإذا حدثت قصة تقتضي التوجيه نزل في حقها آية أو آيات، وإذا سأل سائل عن قضية نزل في حقها آية أو آيات، حتى ارتبط فهم القرآن الكريم بمعرفة أسباب النزول[2]، وهي في مجملها – ولا ريب – قائمة على التغيير الممنهج لواقع يقتضي هذا التغيير.

2- أثر الواقع الفاسد على حياة الناس:

تناول القرآن الكريم أثر الواقع البائس لأمم تنازعتها الأهواء وسيطر عليها ظلم الذين صنعوا هذا الواقع وظلامهم، تقرأ ذلك في أمثال ضربها القرآن لوصف حال الكافرين مثل قوله سبحانه: {**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**} [البقرة :171]، إنهم لا يفهمون معنى ما يقال إلا كما يفهم من ينادى عليه من بعيد فلا يستجلي حقيقة الخبر، ذلك لأنهم عطلوا أسماعهم وألسنتهم وأعينهم فصاروا كالفاقدين لها فلا يعقلون شيئا يقال أو يرى[3] .

وتلحظ في هذا الوصف البليغ الدقيق مدى حرص القرآن الكريم على التغيير من حال هؤلاء الكافرين تحريضا على السعي لتغيير حالهم الذي يخشى من انتقال عدواه إلى سواهم، ولذلك يعقد القرآن مقارنات بين الحق والباطل، الطيب والخبيث فيحكم أن لا تساوي بينها { **قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون** } [المائدة:100] ، إنه استدعاء للعقل: { **يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ** }، وتخويف من فشل: { **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون** }، وهذا كله مرتبط بالواقع الذي قد يزيغ الأبصار ببريق خادع { **وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** } [4].

لقد سلب ذلك الواقع المظلم من أصحاب العقول عقولهم حتى صار قبولهم بالواقع الفاسد لمجرد التقليد وتقديس الموروث ولو كان يحمل في طياته بذور الهلاك، تحكي لنا سورة الزخرف في مقطع من مقاطعها بؤس هذه القناعة الفاسدة لدى المتمردين على التغيير: { **وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِين (6) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون (7)** } [الزخرف: 6-7].

ثم تسترسل السورة في استعراض حال هؤلاء المتمردين إلى قوله سبحانه: { **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُون (22) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُون (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُون (24) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين** } **(25)** [الزخرف: 22-25]

(1) النسفي: مرجع سابق (171/1).
(2) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن (84/1).
(3) محمد بن يوسف، أبو حيان : تفسير البحر المحيط (484/1.
(4) أحمد المراغي : تفسير المراغي (38/7-39).

يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال هذه الآيات الكريمة تعليقا على تهافت حجة هؤلاء المقلدين الرافضين للتغيير: { **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُون}** وهي قولة تدعو إلى السخرية فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة، إنها المحاكاة ومحض التقليد، بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق، ولا يسأل إلى أين يمضي؟ ولا يعرف معالم الطريق.

والإسلام رسالة التحرر الفكري والانطلاق الشعوري، لاتقر هذا التقليد المزري ولا تقر محاكاة الآباء والأجداد اعتزازا بالإثم والهوى، فلا بد من سند، ولا بد من حجة، ولا بد من تدبر وتفكير، ثم اختيار مبني على الإدراك واليقين....وهكذا يظهر أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة، وحجتهم كذلك مكرورة " **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُون** " أو "مقتدون" ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة، وتطمس عقولهم دون التدبر لأي جديد، ولو كان أهدى ولو كان أجدى، ولو كان يصدع بالدليل، وثم لا يكون إلى التدمير والتنكيل لهذه الجبلة التي لا تريد أن تفتح عينيها لترى أو تفتح قلبها لتحس أو تفتح عقلها لتستبين"[1]

3- مقارنة القرآن بين الهدى والضلال:

وفي سياق بيان القرآن الكريم للواقع الذي يقتضي التغيير يفسح المجال للعقل المدرك أن يقارن بين الواقع كما هو وبين ما ينبغي أن يصار إليه في حياة الناس، وحصر ذلك في التنزيل الحكيم يحتاج إلى بحث مستقل، ولكن يكتفى ببعض الآيات الكريمة على سبيل المثال لا الحصر، اقرأ قوله تعالى { **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَاب }** [الرعد: 19]، { **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَاب}** [الزمر: 9] ، وهاتان الآيتان تقارنان بين من يعلم حقيقة ما أنزل الله من هدى وبين من لا يعلم، وليس عبثا ختم الآيتين بخاتمة واحدة { **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَاب** } لأن هذه الحقيقة الساطعة بحاجة إلى أصحاب عقول راجحة تعينهم على تغليب الحق على الهوى خلافا للمتمردين على التغيير، الذين وإن كانت لهم عقول فإنهم لا يفعّلونها .

واستمع إلى قوله سبحانه: { **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [الملك: 22] ضرب الله تعالى مثلا للمشرك والموحد لإيضاح حالهما وبيان مآلهما ، فقد قارنت الآية الكريمة بين الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فلا يزال مشيه ينكسه على وجهه، فهل هذا الذي يمشي على وجهه أهدى إلى المقصد الذي يريده " **أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا** " معتدلا ناظرا إلى ما بين يديه[2].

إن حياة الإيمان هي اليسر والإتقان والقصد، وحياة الكفر هي العسر والضلال، فأيهما أهدى؟ هل الأمر في حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب[3]، الذي يلزم أهل الباطل الحجة ويستغرب استعلاءهم على التغيير.

(1) قطب: في ظلال القرآن الكريم (3182/5).
(2) الشوكاني: تفسير فتح القدير (264/5).
(3) قطب: مصدر سابق، (3644/6).

4- سنن الكون الإلهية تقتضي تغيير الباطل:

كفل القرآن الكريم بيان السنن الإلهية الكونية التي تحكم على الباطل بالزوال بأشكاله كلها سواء رضي أهله بتغييره أم أبوا، نقرأ ذلك في آيات كثيرة ، منها قوله سبحانه { **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ(20) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيز (21)} [المجادلة: 20- 21]** وفي هاتين الآيتين سنة إلهية من شقين: الأول أن الذي يعادي الحق يعيش ذليلا، والثاني أن هذا الذل إرغام ناتج عن الهزيمة في ساحة المواجهة الفكرية والعسكرية على حد سواء[1].

وفي قوله سبحانه: { **أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُون(109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِين (110)}** [يوسف 109-110]

إنها دعوة للتأكد من سنة الله تعالى في تغيير الباطل بالسير في الأرض والاطلاع على أثر اجتثاث المبطلين منها، يتبعها تأكيد لهذه السنة المتحققة لصالح دعاة التغيير من الأنبياء والرسل بحتمية انتصارهم وحتمية نفاذ أمر الله سبحانه بإحداث التغيير ، وفي ذلك يقول الشيخ المراغي في تفسيره: "وهذه سنة الله في الأمم، يرسل إليهم الرسل بالبينات ويؤيدهم بالمعجزات حتى إذا أعرضوا عن الهداية وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادي التكذيب وتراخي النصر، جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المكذبين العذاب بغتة"[2] .

المبحث الثاني:

العنصر الثاني: منهج يغير الواقع

التغيير لا يكون إلا وفق إرادة الله تعالى الذي له الحكم وحده على الأمور بالصحة والبطلان، بالصواب والخطأ، بالحق والضلال، وهو سبحانه يقرر ذلك: { **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِين} [الأعراف: 54]** ولأن أهل السنة والجماعة قرروا أن الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع[3] فإن التغيير وفق هذا المنهج هو وظيفة الوحي قرآنا وسنة ، فما لم يرد في القرآن والسنة مما استجد بعد عصر الوحي فمرده إليها قياسا أو إجماعا في تفسير آية أو حديث ظنيين أو سواهما من مصادر التشريع التبعية كالاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع والعرف، وذلك كله معتمد على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عملا بقوله سبحانه: { **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب** } [الشورى:10].

أساليب القرآن في التغيير

المستقرئ لنصوص القرآن لا يجد عناء في استخلاص مجموعة من المعالم التي يمكن فهمها على أنها معالم أسلوب الوحي بشقيه في تغيير الواقع المذموم ، وأستعين الله تعالى في تلخيصها بما هو آت:

(1) النسفي: مصدر سابق (169/5).

(2) المراغي: مصدر سابق (55/13).

(3) وللأفعال حسن ذاتي وقبح ذاتي لكن لسان الشرع هو الذي يحلل ويحرم فبالإباحة يثبت الحسن وبالتحريم يثبت القبح ، ومذهب المعتزلة خلاف ذلك فإن عندهم الحسن ما حسنه العقل والقبيح ما قبحه العقل. انظر: الخضري بك: أصول الفقه (ص25/22).

1- التدرج في التغيير:

من بدهيات العقول السليمة أن النفس يصعب عليها ترك ما ألفته مدة طويلة من الزمن دفعة واحدة، ولكي يكون التغيير واقعيا وناجحا اعتمد الوحي أسلوب التدرج ، الذي يساعد النفس البشرية على الامتثال ويجعله ضمن دائرة الإمكان البشري، وأمثلة ذلك من التشريع الرباني كثيرة ، منها ما حكاه المفسرون في تشريع الجهاد، ففي قوله تعالى: **{وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ }** [البقرة: 190] يقول الإمام النسفي في تفسيره تعليقا على قوله سبحانه في الآية **{ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ "** (وعلى هذا يكون منسوخا بقوله تعالى: **"وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً } [التوبة: 36]** ، وقيل هي أول آية نزلت في القتال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتل ويكف عمن كف) [(1)]

ومعلوم أن الجهاد وسيلة تغيير للشخص أو المكان، فهو سبيل تحرير الأمم من ربقة سادة يحولون بينهم وبين اختيار دينهم بحرَية، كما هو سبيل لتحرير البلاد من ظلم سيادة الظالمين ، وقد تدرج الشارع الحكيم في فرض هذه الوسيلة من وسائل التغيير كما رأيت.

ومن أمثلة التدرج في التغيير ما كان من أمر تحريم الخمر في كتاب الله تعالى ، وقد بعث النبي في أمة تحفل بالخمر إلى درجة تخليده في أشعارها وابتدائها بذكر الخمر ووصفه والدعوة إلى معاقرته ، ولو حرم الخمر دفعة واحدة لشق ذلك على النفوس، ولكن الله بمحكمته حرمه بمقدمات، وقد أحسن الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسيره المنار بنقل مجمل الروايات في ذلك، يقول : (قال السيوطي في أسباب النزول: روى أحمد من حديث أبي هريرة قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما فأنزل الله **{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } [البقرة: 219]** ، فقال الناس : ما حرم علينا إنما قال **{ إِثْمٌ كَبِيرٌ "**، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها **{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى }** [النساء: 43] ، ثم نزلت آية أغلظ من ذلك: **{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ } إلى قوله: { فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}** [المائدة: 90- 91] قالوا: انتهينا ربنا[(2)].

والتدرج في تغيير حال العرب العاشقين للخمر كان مصاحبا لرغبة عالية عند أصحاب الذوق الرفيع خلقا وسلوكا كعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي تذكر الروايات أنه قبل كل مرحلة من مراحل التغيير المذكورة كان يقول :اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا [(3)].

(1) النسفي: مرجع سابق، (123/1)، وقضية النسخ مختلف فيها بين العلماء غير أن المستفاد منه في هذا الموضع هو تغير الحكم في المحصلة من زمان إلى زمان بالتدريج.

(2) رضا: تفسير المنار (255/2- 256).

(3) محمد رشيد رضا: المرجع السابق.

ويعد التدرج في تحريم الخمر إعجازا تشريعيا للقرآن الكريم الذي نجح في استئصال ولع العرب بهذه العادة القميئة في زمن قياسي يعد بالأشهر لا بالسنوات ، مقارنة بمحاولة أمريكا في ثلاثينيات القرن العشرين، التي باءت بالفشل لأنها لم تربط محاولتها بدين ولا بوحي رغم ما أنفقت من الملايين وما حشدته من من جهود هائلة [1].

2- تشخيص الواقع بدقة:

إن المغالاة في وصف الواقع لا تعين على تغييره لأنها عندئذ توسع دائرة التغيير فتعصف بمفردات لا حاجة لتغييرها أو تبالغ في وصف حال فتصرف له من الجهد ما يرهق ولا يفيد، وقد مرت الإشارة عند توصيف حال أهل مكة عشية البعثة إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم :" إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ" [2]، وهذا الحديث الصحيح يصلح شاهدا على مدى الدقة النبوية في تشخيص واقع أهل مكة ، فلو تعامل معهم على أساس تجردهم من كل خلق لاقتضى ذلك بذل كثير من الجهود التي ليس من ورائها طائل ، ومن الأمثلة القرآنية على دقة تشخيص الواقع، أن القرآن عندما يتحدث عن خصومه يتجنب التعميم ، نقرأ ذلك في مواضع كثيرة من كتاب الله ، مثل قوله سبحانه: { **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ** } [البقرة: 109] ، ولم يطلق الحكم على الكل، وقوله: { **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ** " [المائدة: 66] وقوله: { **وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ**} [الأنعام: 137] ، لأن بعضهم لا يقتلون أبناءهم، ومثل ذلك في القرآن واضح.

لقد كان القرآن الكريم دقيق التوصيف لقضية تخص النبي صلى الله عليه وسلم يتعلق بها حكم شرعي يقوم على تغيير ما كان إلى ما يريده الله تعالى ويرضاه، ذلكم هو حكم التبني وما يتفرع عنه من زواج مطلقات أبناء التبني، لقد شاء الله تعالى أن يتزوج زيد بن حارثة – ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبني قبل الاسلام – بنت عمة نبينا عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش ،فلم يقدر لهما التوافق في ذلك الزواج ، فطلقها زيد، فأراد الله لنبيه تزوج زينب لكي يكون ذلك تشريعا في نفي الحرج عن زواج مطلقة الابن بالتبني، لأن التبني في ذاته باطل شرعا ،فجاء القرآن صريحا دقيقا في هديه، قال تعالى: { **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (37) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (38)** } [الأحزاب:37-38] وهكذا ترى أن القرآن في وضوحه وتحديده لا يجامل أحدا حتى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ويسمي الأشياء بأسمائها { **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاه** }، { **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** }، قال أنس: "فلو كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كاتِماً شيئاً لكانَ كَتَمَ هذهِ الآيةَ" [3].

3- الحزم وعدم التردد:

(1) عبد الكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية (ص 37).

(2) سبق تخريجه: انظر (ص 5) .

(3) الشوكاني: مرجع سابق (286/4)، وأخرجه البخاري ح 7420 كتاب التوحيد، باب "وكان عرشه على الماء".

لقد ضرب النبي المشرع صلى الله عليه وسلم أمثلة تحتذى في إدارة التغيير منذ بواكير دعوته، فهاهم زعماء قريش يكلمون عمه أبا طالب في مفاوضته بكف أذاه عنهم – بزعمهم – بالمضي في تسفيه أحلامهم والعيب على آلهتهم، فكان صلى الله عليه وسلم حازم الإرادة جريء المنطق، عبر عن ذلك بكلمات خلدتها كتب السير حين خاطب عمه بقوله: (واللهِ يَا عمّ لَو وَضَعُوا الشَّمسَ فِي يَمِينِي وَالقَمرَ فِي يَسَارِي على أَن أَترُكَ هَذَا الأَمرَ حَتّى يُظهِرَهُ اللهُ أَو أَهلِكَ فِيهِ مَا تَرَكتُهُ) [1].

والمشركون ذاتهم جاؤوا يفاوضون النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أفلسوا في محاولة ثنيه عن دعوته، لكي يعبدوا إلهه سبحانه سنة ويعبد آلهتهم المزعومة سنة ، فنزل الوحي الإلهي حازما صارما واضحا مطلق الوضوح: **{ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُون (1) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون (2) وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّم (4) وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين (6)}** [الكافرون: 1–6] ، والحزم في هذه السورة بين في قطع القرآن بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعبد آلهتهم اليوم كما لن يعبدها في المستقبل، وأن المشركين المستكبرين لن يعبدوا الله الواحد اليوم كما لن يعبدوه في المستقبل، وهم نفر مخصوصون من قريش علم الله أنهم لن يؤمنوا. [2]

4- الصبر على التغيير والمجاهدة في سبيله:

لذلك يوجهنا القرآن الكريم أن الصبر على التغيير عدة لابد لمدير التغيير منها ، اقرأ توجيه القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم: **{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}** [الأحقاف: 35] ، وأولو العزم هم الأنبياء الراسخون في صبرهم على طريق دعوتهم وهم في أشهر الأقوال نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد عليهم الصلاة والسلام، وما أطلق عليهم صفة أولي العزم إلا لتميزهم بالصبر والمجاهدة [3].

وفي القرآن توجيه للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر في آيات كثيرة بلغت نحوعشرين. وقد ضاق خباب بن الأرت رضي الله عنه بما أصابه في سبيل التغيير الذي ثبت عليه حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم مع نفر من أصحابه وهو صلى الله عليه وسلم متوسد بردة في ظل الكعبة ، فقالوا : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: " قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ ، فَيُجْعَلُ فِيهَا ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ " رواه البخاري[4].

وخاتمة الحديث هي ثمرته فحركة التغيير لا تكتمل بدون الصبر وطول النفس، وقصص القرآن الكريم حافلة بالإشارة إلى هذا المعنى، أليست قصة نبي الله يوسف الممتدة في مساحة سورة كاملة بمراحلها وتضاعيفها خير دليل على أن الصبر أقوى عدة لبلوغ المرام؟ أوليس مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم فيها إلى الله ويحاول تغيير عقائدهم الفاسدة خير دليل على أن طريق التغيير طويل وأن المجاهدة في سبيل ذلك هي سبيل المرسلين؟!.

(1) ابن هشام: مرجع سابق (277/1).
(2) ابن كثير: مرجع سابق (560/4).
(3) ابن كثير: مرجع سابق (172/4).
(4) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الإكراه (ح 6943 ، (315/12– 316).

5- اتباع أسلوب الإقناع العلمي الموضوعي:

التغيير بحاجة إلى محاكاة عقلية، وبناء الحجج على منطق يشعر المخاطب بالإنصاف والموضوعية في الخطاب، وآيات الكتاب الكريم جميعها موضوعية في حوارها للآخر، منصفة في إطلاق أحكامها إنصافا لا يبلغه كلام البشر، تدبر في ذلك قوله تعالى: **{قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}** [سبأ: 24] ، يقول الزمخشري في الكشاف: "ومعناه: وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السماوت والأرض، ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال مبين، ولكن التعريض والتورية أنضل[1] بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك وإن أحدنا لكاذب"[2]

ومن أمثلة المحاكاة العقلية للخصم ما جاء في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام يحاجج قومه: **{ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (82)}** [الأنعام 80-82]، إنها محاكاة عقلية هادئة لجأ إليها نبي الله إبراهيم عليه السلام بعيدا عن اللجاجة في الخصومة – كعادته في الحوار الهادئ المنتج- فهو يسألهم سؤال استنكار عن السبب الذي سيحمله على الخوف من آلهتهم المزعومة التي لا تضر ولا تنفع، والسبب الذي يحملهم على عدم الخوف من نتيجة مقارفة هذا الظلم العظيم المتمثل بالشرك بالله، ليصل إلى النتيجة المحتومة " **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [الأنعام:82] لأنهم يستندون إلى ركن ركين هو إيمانهم الخالص من كل شرك ، ويشير الإمام النسفي في تفسيره إلى موضع الاستهجان من قبل إبراهيم عليه السلام لكلام خصومه فيقول: "والمعنى ومالكم تتكرون علي الأمن في موضع الأمن ولا تتكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف؟" [3].

ومن أمثلة إلزام الحجة بنفس هادئ بعيدا عن صخب الجدال طلب القرآن من خصومه في غير موضع أن يقدموا أدلتهم وبراهينهم على ما يزعمون ، وأنى للباطل أن يتسلح بالدليل؟! فتكون النتيجة محسومة بخروجه من الجدال محسورا، من ذلك قوله سبحانه: **{ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا "** [النساء: 111] ، وقوله تعالى:" **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ "** [الأنبياء: 24] ، وقوله: **{ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [النمل: 64]. يقول ابن عاشور في تفسيره لآية

(1) قوله: "أنضل بالمجادل": قال صاحب اللسان: "وناضلت فلاناً فنضلته إذا غلبته"، فيكون معنى أنضل بالمجادل: أقربُ به إلى الغلبة. ابن منظور: مرجع سابق (665/11).

(2) جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف (288/3 – 289).

(3) النسفي: مرجع سابق (56/2).

البقرة :"وقوله: " **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ** " أمر بأن يجابوا بهذا، ولذلك فصله لأنه في سياق المحاورة..... وأتي ب "**إن**" المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق لاستدراجهم، حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان، لأن كل اعتقاد لا يقيم معتقده دليل اعتقاده فهو اعتقاد كاذب، لأنه لو كان له دليل لاستطاع التعبير عنه، ومن باب أولى لا يكون صادقا عند من يريد أن يروج عليه اعتقاده" [1].

6- التنويع في الخطاب بين الترغيب والترهيب

تختلف طبيعة المخاطبين بالتغيير وتتفاوت عواطفهم، منهم من يستهويه الترغيب بالفعل فيأنس بذكر الثواب وتتوق نفسه إلى الاستماع لتفصيلاته، فيخشع ويخضع، ومنهم من لا يجدي معه إلا ذكر العقاب فيرتجف قلبه ويلين خوفا مما يذكر به من مصائر المعاندين، من أجل ذلك فقد اعتمد القرآن أسلوبي الترغيب والترهيب لإحداث التغيير في حياة الناس، ليعيش الإنسان بين الخوف والرجاء، ومن سنن القرآن الكريم أن لا يذكر الجنة إلا وذكر النار، ولا يطمع بالثواب إلا أردفه بالعقاب، ولا ذكر أهل الهداية إلا وذكر إزاءهم أهل الضلال أو العكس، ولذلك فائدة موضوعية تضاف إلى مراعاة الفروق بين المخاطبين، وهي رسم صورة كاملة لما عليه أهل الحق وأهل الضلال، وما أعد لكل منهما من ثواب وعقاب ليتسنى للعاقل أن يختار في وضوح رؤية وحرية متبصرة.

وهذه أمثلة توضح الصورة مع الإشارة إلى أن الاستقصاء في هذا الموضوع غير ممكن لأنه يشغل مساحة التنزيل الحكيم كلها، من ذلك:

- سورة الفاتحة التي سبقت الإشارة إلى أسلوبها في التغيير، فقد جاء في الدعاء على لسان المؤمنين: { **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيم (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّين (7)**} [الفاتحة: 6-7] وفي السياق ذكر للسبيلين سبيل أصحاب الصراط المستقيم من جهة، وسبيل المغضوب عليهم والضالين من جهة إخرى، ليستبين فضل الهداية إلى الصراط المستقيم إذا ذكر إزاءه حال المغضوب عليهم من اليهود والضالين من النصارى[2].

- وفي سورة البقرة عشرات الأمثلة على أسلوب المقابلة نأخذ منها قوله تعالى: { **بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون (81) وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون (82)**} [البقرة: 81-82] ، فيها ذكر لأصحاب النار أتبعه ذكر أصحاب الجنة وقرن كلا بعمله الموجب لمصيره.

- وفي آل عمران: { **وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُون (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون (107)**} [آل عمران: 105-107].

- وفي الشعراء: { **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِين (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِين (91)**} [الشعراء: 90-91].

(1) ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير (674/1).

(2) انظر: ابن كثير، تفسير ابن كثير (29/1).

– وفي الزمر : { **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا**} [الزمر: 71] ، وبعدها: { **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا**} [الزمر: 73] ، وفيها من المقابلة و المقارنة ما لا يخفى .

7- الغاية لا تبرر الوسيلة في التغيير:

تقوم سنة التغيير في القرآن على الطهارة الحسية والمعنوية، الطهارة الحسية باب من أبواب الفقه، والطهارة المعنوية أصل في بناء الفكر الإسلامي، يقوم على فلسفة أن دين الله تعالى هو رمز الطهارة والنقاء، والمحافظة عليه غاية الغايات فلا يسلك في سبيلها إلا وسيلة نبيلة بنبل الغاية، خلافا للنظريات والمبادئ الوضعية التي تتبع المبدأ الميكافيللي (الغاية تبرر الوسيلة) [1] فهم يرون أن غايتك النبيلة تبرر لك اتباع الطرق المتاحة في تحقيقها بغض النظر عن طبيعة هذه الطرق والوسائل، فيؤدي ذلك إلى ارتكاب مئات المفاسد لتحقيق مصلحة واحدة وهذا خلل في التصور قبل أن يكون خللا في السلوك .

لقد قرر القرآن استخلاف الله تعالى للإنسان على الأرض ليعمرها : { **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ**} [البقرة: 30] ، ومن أجل تحقيق هذه الغاية شرع سبحانه وسيلة الزواج التي تضمن التكاثر ، ولكنه حرم الزنا، الزواج وسيلة نظيفة تبني الأسرة وتؤمن المحضن السليم للأبناء، والزنا وسيلة موبوءة تضيع الأنساب وتهدم الأسر وتشيع الفساد، رغم مشاركتها في تكثير النوع البشري، فكانت في ميزان القرآن فاحشة مستقبحة يعاقب مقترفها " **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** " [الإسراء: 32] ، { **وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69)**} [الفرقان: 68-69].

كذلك فقد أباح الله تعالى البيع وحرم الربا، البيع فيه استثمار للأموال وهو وسيلة تحتمل الربح والخسارة، ولا تستغل عرق الفقراء ولا ضيق حالهم، أما الربا فهو وسيلة فاسدة لتنمية الأموال، يقول الأستاذ محمد رشيد رضا: {**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا**} [البقرة: 275] أي ذلك الأكل للربا مسبب عن استحلالهم له وجعله كالبيع وما هو كالبيع، فإن البيع معاوضة بين شيئين، وأما الربا الذي كانوا يأكلونه فهو زيادة عن دينهم يزيدونها عند تأخير الأجل لا يقابلها شيء، وما يؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل، لذلك حرم الله الربا دون البيع فقال: "وأحل الله البيع وحرم الربا" ولو كانا متساويين لما اختلف حكمهما عند أحكم الحاكمين، فكل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل اموال الناس بالباطل الذي لا يقابله عوض فهي بيع حلال، وإنما تحرم الزيادة التي يأخذها صاحب المال لأجل التأخير في الأجل، وهي لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهي ظلم"[2].

لقد تعامل الفقهاء المعاصرون مع المستجدات في حكمهم عليها طبقا لتفعيل هذا المبدأ السامي في التشريع الإلهي، فبالنظر إلى حقائق الأمور نجد أن الفقهاء حين يسألون عن تفعيل بعض المشروعات المسماة بالخيرية في حياتنا الاجتماعية عن طريق طرح مسابقات أو أوراق تباع لتدر أرباحا على مشروعات يخصص ريعها للفقراء أو الأيتام، فإما أن يخسر المشتري لهذه الأوراق كل ما دفع وإما أن تعود عليه بربح ألوف الدنانير، وهذا تماما هو القمار الذي سماه القرآن "ميسرا"وحرمه بقوله : { **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ**

(1) نيقولا ميكافيللي إيطالي ولد في فلورنسيا (1469- 1527م) فكرته : الغاية تبرر الوسيلة أضحت من قواعد السياسة في معظم الدول العلمانية. موقع ويكيبيديا (على الانترنت).

(2) محمد رضا: مرجع سابق (81/3).

الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُون (91)} [المائدة: 90-91].

يقول الشيخ مصطفى الزرقا في كتاب الفتاوى عن فكرة اليا نصيب :"ترجح عندي أن هذه الفكرة غير مقبولة في النظر الإسلامي، فإن فيها سلوك الواسطة الحرام للوصول إلى الهدف المشروع ، وإن الإسلام لا يقبل فيه مبدأ أن الغاية تبرر الواسطة فإن هذا المبدأ الذي يعتمده اليهود والشيوعيون يفتح أبوابا من الوسائط الإجرامية لا حدود لها، فيجب في الإسلام أن تكون الغاية **والواسطة كلتاهما مشروعتين** ." [1].

وفي هذا الكلام غناء عن المزيد، فانظر.

المبحث الثالث:

العنصر الثالث: مدير التغيير (النبي صلى الله عليه وسلم والدعاة من بعده)

"صفات وضوابط"

لقد وصف الله تعالى نبيه بأوصاف تليق بالداعية المؤثر،القادر على التغيير والتأثير فيمن حوله ،ويستعرض البحث أهم هذه الصفات كما يأتي :

1-القدوة الحسنة:

نطق القرآن الكريم بوصف النبي صلى الله عليه وسلم بالقدوة الحسنة: **{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}** [الأحزاب: 21] (الأسوة القدوة، والأسوة ما يتأسى به أي يتعزّى به ، فيقتدي به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله، فقد شجّ وجهه وكسرت رباعيته، وقتل عمه حمزة، وجاع بطنه فلم يُلفَ إلا صابرا محتسبا وشاكرا راضيا ، وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال :شكونا إلى رسول الله الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجرٍ حجر ، فرفع رسول الله عن حجرين ...) [2]

والقدوة الحسنة هي ضمانة النجاح في التغيير لأن حال المغير إن لم تدل على رسالته فشلت مهمته.

ومما يؤهل النبي صلى الله عليه وسلم ليكون في حياة أمته القدوة الحسنة ما شهد الله تعالى له به في قوله: **{ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** [القلم: 4] ، والمرء من غير سوية عالية من الخلق لا يمكن أن يغير في نفسه فكيف يقوى على تغييرحال غيره؟ قال النسفي في تفسير هذه الآية: (قيل هو ما أمره الله في قوله: **{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}** [الأعراف: 199]، وقالت عائشة رضى الله عنها:كان خلقه القرآن" أي ما فيه من مكارم الأخلاق) [3]

---

(1) مصطفى الزرقا: الفتاوى ، (ص570/569).

(2) أبو عبدالله القرطبي : تفسير أحكام القرآن (155/14 – 156 ، والحديث أخرجه الترمذي، أبو علي المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (ح 2476).

(3) النسفي : مرجع سابق (239/5).

ومن ثمرات القدوة الحسنة المبنية على حسن الخلق، حلم الداعية الذي يمكنه من اكتساب القلوب والتأثير بالمدعوين فقد جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما إذا أتاه ذو الخويصرة رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :ويلك من يعدل إن لم أعدل ؟لقد خبت وخسرت ،إذا لم أعدل فمن يعدل؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "دَعْهُ"[1]. وروى الإمام مسلم عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له قط ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبها إليه أيسرهما حتى يكون إثما فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه حتى تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله"[2]

وفي توافر القدوة الحسنة في الداعية يقول د.عبد الكريم زيدان: "وأصول السيرة الحسنة التي بها يكون الداعي المسلم قدوة طيبة لغيره ترجع إلى أصلين كبيرين :حسن الخلق وموافقة العمل للقول، فإذا تحقق هذان الأصلان حسنت سيرة الداعي ، وكانت سيرته الطيبة دعوة صامتة إلى الإسلام.... " [3] .

2- العلم والفهم:

مدير التغيير لا بد أن يكون عالما بحال الناس وما ينبغي أن يتغير فيهم ، قادرا على مواجهة المدعوين بالحجة والبيان، وفي مثال النبي الداعية صلى الله عليه وسلم فإن مصدر علمه هو الوحي عن ربه، أما الداعية وارث النبوة فلا بد له من علم بالقرآن والسنة واللغة والسيرة والتاريخ ومجمل علوم العصر، كل ذلك على سبيل يمكن الداعية من أن يكون موضع ثقة الناس، تقنع عقولهم بما يقول، وتطمئن نفوسهم إليه[4]، وهذا هو توجيه القرآن الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يدعو إلى الله (على بصيرة): { **قُلْ هَـــذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**} [يوسف: 108]

3- جدية مدير التغيير وبعده عن المجاملة:

سبق الحديث في أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية في التغيير أن منها الحزم وعدم التردد ، وإذا كانت النصوص الموحى بها تتبع هذا الأسلوب، فإن مبلغها لا بد أن يكون على هديها في مفاصلته للباطل وجديته وبعده عن المجاملة.

والإصلاح بالتغيير يتطلب مضاء وعزما ، فالباطل لا يجامل، وإن من أخطر مظاهر المجاملة التعايش مه الباطل بحجة عدم القدرة على تغييره، فقد يكون أتباع الحق قلة أو ضعفاء في زمان أو مكان، فهم معذورون في عدم القدرة على التغيير إلى حين، لكنهم لا يعذرون في تشكيل غطاء لأهل الباطل، أو حتى التزام الصمت السلبي الذي يشعر أهل الهوى بالطمأنينة .

(1) البخاري: مرجع سابق ، كتاب استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج للتألف ، (ح6933).

(2) والحديث أخرجه مسلم: مرجع سابق، كتاب الفضائل ، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله، (ح 2328).
وانظر سعيد حوى: كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم، نماذج من حلمه (ص145-148).

(3) عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة (ص 468).

(4) عبد الكريم زيدان: مرجع سابق (ص317/315).

وقد علم القرآن الكريم النبي وأتباعه أن أدبيات الجديه في طريق التغيير تحفظ جهدهم، وتمدهم بالقوة أمام الخصم، من ذلك قوله تعالى : { **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)** } [الأنعام: 68-69] وقوله سبحانه: { **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** } [النساء: 140] ، ولمحمد رشيد رضا كلام طيب في تفسير هاتين الآيتين، منه قوله: "وسبب هذا النهي أن الاقبال على الخائضين والقعود أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم وإغراء بالتمادي فيه، وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه ، والمشاركة في الكفر والاستهزاء كفر ظاهر ، لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر مجاهر ،..... ولذلك حذّر السلف الصالحون من مجالسة أهل الأهواء أشد ما حذروا من مجالسة الكفار، إذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر ما يخشى عليه من فتنة المبتدع، لأنه يحذر من الأول على ضعف شبهته ما لا يحذر من الثاني وهو يجيئه من مأمنه، ولا يعقل أن يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال استهزائهم بآيات الله وتكذيبهم بها وطعنهم فيها، كما يقعد مختارا مع المبدلين فيها المتأولين لها.... " إلخ كلامه[1] .

يقول الإمام ابن كثير في تعليقه على قوله تعالى: { **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (78) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (81)** } [المائدة: 78-81] :أي كان لا ينهى منهم أحدا عن ارتكاب المآثم والمحارم ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذي ارتكبوه، فقال:" **لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ** [2] فليس طلب المفاصلة والمتاركة نافلة، لأن مخالفة ذلك تورث الهلاك، فهي باختصار تهاون مع صاحب الرذيلة يطمعه في الثبات على رذيلته.

4- الانتماء للفكرة:

لا يحدث التغيير إلا منتم لفكرته متشبع بها، يحس أنها حياته كلها وأن العمل لها يحقق معنى وجوده، فلا ينتظر أن يكون إمام مسجد أو موظف أوقاف ليمارس تغيير المنكر وتثبيت المعروف، فما دام عالما بالمغير والمتغير، قادرا على مواجهة الباطل بالحكمة، فمهما كانت وظيفته الدنيوية لابد أن يؤدي فكرته في كل وقت لأن تغيير المنكر لا ينجز بفضائل الأوقات، فهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم يدعو في كل أحواله وأوقاته ، تحفل السيرة بأقواله وأفعاله ، حتى صمته صلى الله عليه وسلم الذي سماه علماء الحديث (سنة تقريرية) [3] لأنه لو صمت غير موافق على ما يرى أو يسمع لعد مقصرا في تبليغ دعوته، وحاشاه من ذلك صلى الله عليه وسلم.

---

(1) محمد رضا : مرجع سابق (7/421 – 422).

(2) ابن كثير: مرجع سابق (2/82).

(3) "السنة التقريرية: هي عبارة عن سكوته صلى الله عليه وسلم عن إنكار قول أو فعل صدر من أحد أصحابه في حضرته أو غيبته وعلم به صلى الله عليه وسلم، فهذا السكوت منه صلى الله عليه وسلم يدل على جواز القول أو الفعل لأنه صلى الله عليه وسلم لا يسكت على باطل" انظر محمد إبراهيم الحفناوي : دراسات أصولية في السنة النبوية، (ص14).

إن مهمة التغيير لا تعرف الإجازة إلا بالخروج من هذه الدنيا، والداعية المنتمي لفكرته يحس بملء كيانه أن تغيير المنكر عبادة، والعبادة مساحتها العمر كله لا يتوقف أداؤها إلا بتوقفه.

لقد كان إيمان النبي صلى الله عليه وسلم بفكرته وعقيدته هو الضمانة لبلوغ دعوته ما بلغت في الزمان والمكان، وكان لثبات أصحابه أمام الظروف المتفاوتة من تحمل لهب الصحراء المحرقة تعذيبا في سبيل الانتماء للفكرة ، إلى تحمل انفتاح الدنيا عليهم بالنصر والتمكين أبلغ الأثر في خلود دعوتهم ، ما نسوا واجب انتمائهم لفكرة التغيير ولا تقاعسوا عن الصمود في وجه من قاومه على مر السنين حتى غدا سبيل الله تعالى أوضح وأبقى من السبل التي قاومها وعمل على تغييرها حتى صارت من الماضي **{ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: 32]** .

والانتماء للفكرة ليس شعارا يرفع لكنه حياة ترسم على هدي هذه الفكرة حتى يخضع سواها لمقتضاها ، وفكرة هذا الدين هي العبودية الخالصة للإله الواحد وخلع ما سواه من الشعور والواقع إعمالاً لحكاية القرآن لما عليه حال المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه : **{ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) }** [الكافرون: 2-3].

إن الذي يناط به التغيير إذا لم يكن لديه ما يكفي من انتماء لفكرته يمكن أن تغيره الظروف أو تحجبه عن واجبه المؤثرات ، وهذا ما حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تثبيته في نفوس أصحابه في حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه : "... قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ ، فَيُجْعَلُ فِيهَا ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ..." أخرجه البخاري[1] .

خاتمة

هذا ما يسر الله تعالى من عرض لسنة التغيير في القرآن الكريم، وختاما هذه أهم نتائج البحث وتوصيات الباحث:

نتائج البحث:

1- من سنن الله تعالى في التغيير أن تتوافر فيه إرادة المكلف بالرضوخ إلى تعاليم الوحي، مع توافر القناعة بضرورة التغيير إلى ما هو خير.

2- لا تغيير بدون فهم لحقائق الأمور وتدبر لها، والرضى بالأمر الواقع يناقض التغيير.

3- التدرج في التغيير يثمر ما لا يثمره التغيير دفعة واحدة.

4- قادة التغيير هم الأنبياء ثم ورثتهم من الدعاة والمصلحين، وبهم يتوارث التغيير من جيل إلى جيل.

5- الأمة التي تستشعر أهمية التغيير لابد لها من إرادة صادقة في سبيله، مع استخدام أساليبه ووسائله.

توصيات البحث:

1- يوصي الباحث بتوجيه الباحثين من طلبة الدراسات العليا للكتابة في سنن الله كما بينها القرآن الكريم، وهي كثيرة، وثمرتها تعين على بناء أمة إيجابية.

2- كما يوصي الباحث عمادات البحث العلمي والدراسات العليا بتوجيه الدراسات الاجتماعية إلى الإفادة من سنة التغيير كما بينها القرآن الكريم، كون التغيير المجتمعي البشري من أعقد أنواع التغيير أثرا على الحياة والأحياء.

(1) ابن حجر العسقلاني: مرجع سابق، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان، (ح6458).

فهرس المراجع:

القرآن الكريم

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل. (1969م). *تفسير القرآن العظيم*. (د. ط). بيروت: دار المعرفة .

النسفي، أبو البركات عبد الله بن محمود. (د. ت). *القرآن الجليل*. بيروت: مؤسسة الرسالة .

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. (1952م). *تفسير أحكام القرآن*. دار الكتاب العربي .

المراغي، أحمد مصطفى. (1365ه). *تفسير المراغي*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. (د. ت). *الكشاف*. بيروت: دار المعرفة.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (د. ت). *الدر المنثور في التفسير بالمأثور*. بيروت: دار المعرفة.

قطب، سيد. (1988م). *في ظلال القرآن*. ط (15) ، دار الشروق .

الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين. (1983م). *التفسير الكبير ومفاتيح الغيب*. (ط2). بيروت: دار الفكر.

الشوكاني، محمد بن علي. (د. ت). *فتح القدير*. بيروت: دار المعرفة.

ابن عاشور، محمد الطاهر. (د. ت). *التحرير والتنوير*.

أبو حيان، محمد بن يوسف. (1983م). *البحر المحيط*. (ط2). بيروت: دار الفكر.

رضا، محمد رشيد. (1972م). *المنار*. (د. ط). القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني. (د. ت). *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. بيروت: دار الفكر.

المباركفوري(قديمة) أبو العلى محمد بن عبد الرحمن: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. بيروت: دار الفكر .

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد. (1978م). *المسند*. (ط2). بيروت: دار الفكر .

مالك، مالك بن أنس الأصبحي. (1951م). *الموطأ*. مصر: دار الحديث .

الحفناوي،محمد إبراهيم. (1991م). *دراسات أصولية في السنة النبوية*. (ط1). المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر.

الألباني، محمد ناصر الدين. (1983م). *صحيح الجامع الصغير وزيادته*. (ط3). بيروت: المكتب الإسلامي.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد. (د. ت). لسان العرب. بيروت: دار صادر .

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. (د. ت). السيرة النبوية. بيروت: دار الفكر .

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (1987). الإتقان في علوم القرآن. (ط1). الرياض: مكتبة المعارف.

حوى، سعيد. (1979م). الرسول صلى الله عليه وسلم. (ط4). بيروت: دار الكتب العلمية.

زيدان، عبد الكريم. (1981م). أصول الدعوة. (د.م): مكتبة المنار الإسلامي.

زيدان، عبد الكريم. (2005م). المدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية،(ط1). بيروت: مؤسسة الرسالة .

الخضري بك، محمد. (1969م). أصول الفقه الإسلامي ،(ط6). (د. م). المكتبة التجارية الكبرى.

الزرقا، مصطفى. (1999م). الفتاوى ، (ط1). دمشق: دار القلم.